المحاضرة الثالثة: عمود الشعر:

تعتبر قضية عمود الشعر من أهم القضايا النقدية في الشعر العربي القديم، إذ اهتم بها العديد من النقاد والدّارسين، كما استقرت على وجه الخصوص عند المرزوقي والتي صدرت عن طريقة العرب في قول الشعراء،وكشفت عنها ذلك، إذ أن المنهج النقدي عنده، حاول أن يبيّن العناصر الناضجة التي ينبغي الإبقاء عليها للحفاظ على الشعرية العربية، لكن هّ كان واقعا في أسر التقليد، أي أنهجاء بمعايير أو قواعد أساسية سابقة،لأنه استقاها من جودة نص سابق، واحتكم إليها وعاد إليها كل الشعراء في بيان كل جودة ونوعية رفيعة لكل شعر لاحق.

01-عمود الشعر لغة واصطلاحا:

01-01-العمود لغة : العمود : عمود البيت وهو الخشبة القائمة في وسط الخباء، والجمع أعمدة وعمد،وعمود الأمر : قِوامه الذي لا يستقيم إلاّ به، والعميد : السيد المعتمد عليه في الأمور أوالمعمود إليه.[1]

01-02-العمود اصطلاحا : هو طريقة العرب في نظم الشعر لا ما أحدثه المولدون والمتأخرون ، أو هي القواعد الكلاسيكية للشعر العربي التي يجب على الشاعر أن يأخذ بها، فيحكم له أو عليه بمقتضاها.

ويعّرف بأنه التقاليد الشعرية المتوازنة أو السنن المتبعة عن الشعراء العربية ومن سار على هذه السنن وراعى تلك التقاليد قيل عنه" أن ّه التزم عمود الشعر، واتبع طريقة العرب ومن حاد عن تلك التقاليد وعدل عن تلك السنن "قيل عنه إنّ قد خرج عمود الشعر وخالف طريقة العرب ، ويلاحظ في المعنى العجمي أنّ لم يذكر ارتباط كلمة العمود بالشعر كما هو الأمر في المعنى الاصطلاحي ، إلّا أنّ هذا لا ينبغي أن يكون المعنى الاصطلاحي مستو حتى من المعنى اللّغوي فكما أن خشبة بيت الشعر هي الأساس الذي يقوم عليه ذات

البيت، فإنّ أصول الشعر العربي وعناصره التي يشير إليها المعنى الاصطلاحي تعد أيضا بمثابة الدعامة والركيزة الأساسية التي يقوم نظم الشعر الجيد الصحيح.[2]

عمود الشعر العربي يقصد به الأوزان التي قالت على نسقها العرب القدماء، شعرهم الأول منذ بداية ظهور الشعر والتي لم تعرف إلّا بالعصر الجاهلي، ومرورا بالعصر الإسلامي ثم العصر اية عملاه، فلّما جاء **(الخليل بن أحمد الفراهيدي) (ت 173هـ)** قام بوضع علم العروض والذي استنسخ منه أن العرب وضعت شعرها جملة على خمسة عشرة بحرا موسيقيا، وأضاف تلميذه الأخفش بحرا موسيقيا آخر واتبعت بعضها بعض في هذه الأوزان فلم تخرج عنه فكان الشاعر يقول قصيدته من أولها لآخرها على نفس النسق الموسيقي الذي بدأ به القصيدة فلا يخرج عنه البتة وكان أشهر هذه الأوزان" الطويل، الكامل، البسيط، الرمل، المديد،الهزج، الخفيف، الرجز "أّما بقية الأوزان الموسيقية فقد جاءت عنهم، ولكن بقلة في قصائدهم والمشهور منها ما تقدم ذكره، هذا هو المفهوم الأول لعمود الشعر العربي، ولكّن هذا المفهوم مرتبط بمفهوم آخر بالشعر العربي وهو أن الشاعر العربي لما يقول قصيدته، يقولها على نسق فكري معيّن متأثرا بطبيعته وبمن سبقه وبمن حوله، ولعلّه بذلك يقولها في فترات متباعدة كما عرف عن أصحاب الحوليات، فتأتي قصيدته مختلفة الموضوعات محكمة التقسيم، فكان على الشاعر أن يقف على الأطلال ويناجي الحبيب ثم يصف رحلته وصفلدقيقا ثم يتفنن في وضع أروع الصور التي تأتيه بمخيلته الواسعة ثم يأتي على موضوعه الأساس في القصيدة من مدح أو غزل أو هجاء أو عتاب، وفي كل قسم من أقسام قصيدته يكون حسنا في تنقله من موضوع إلى آخر وهو ما عرفه النقاد القدماء بحسن التخلص.[3]

وما يمكن أن يقال إن عمود الشعر يقصد به المحافظة على وزن الشعر العربي التقليدي الذي جاء عن العرب ووضع أصول قواعده الخليل.

02-مقومات عمود الشعر:

إنّ عناصر عمود الشعر استقرت عند المرزوقي صدرت عن طريقة العرب في قول الشعر، وكشفت عنها ذلك المنهج النقدي عنده، إذ نحاول أن يبين لنا العناصر الناضجة التي ينبغي الإبقاء عليها للحفاظ على الشعرية العربية الناضجة ومن هنا تنطلق في سرد مجموعة من المعايير والمقومات الأساسية لعمود الشعر وهي:

01- عيار الإصابة في الوصف.

02- عيار اللّفظ :فهو المختار المستقيم وهذا في مفرداته وجملته، لأنّ اللّفظة تستكرم بانفرادها.

03- عيار المقاربة :في التشبيه، الفطنة وحسن التقدير حتى قيل أن أقسامه ثلاثة مثل سائر، تشبيه نادر ،استعارة قريبة.

04- عيار ا لِتحام أجزاء النظم والتئامه فلم يتعثر الطبع ولم يتحسس اللّسان.

05- عيار الاستعارة :الذهن والفطنة وتقريب التشبيه في الأصل.

06- عيار مشاكلة اللّفظ للمعنى وشدة اقتضاهما للقافية وطول الدربة ودوام المدارسة.

وهذه هي المعايير التي استعملها المرزوقي [العقل الصحيح ، الفهم الثابث، الطبع، الرواية، الاستعمال، الذكاء وحسن التمييز ،الفطنة وحسن التقدير، طول الدربة، دوام المدارسة] ولا ريب في أنّ العقل والفهم والذكاء والفطنة والذهن تعبير عن حقيقة واحدة كما أن استعمال وطول الذربة شيء واحد وإذن فإنّ

معايير المرزوقي هي الطبع الرواية ، الذكاء، الدربة إلى أنّ الجرجاني افترض وجود هذه العناصر في الشاعر أّما المرزوقي فإنهّ يتحدث عن توفرها في المتلقي أو المتذوق أو الناقد.[4]

03-نشأة مصطلح عمود الشعر:

03-01-عند الآمدي:

عند تتبع هذا المصطلح تاريخيا، فإننا لا نجد من النقاد قبل الآمدي من تحدث عن عمود الشعر بهذا اللفظ، وإنما نحن نواجه هذا المصطلح عنده لأول مرة، لذا فإنه يُنسب له فضل الإسهام في تأسيس هذا المصطلح وتأصيله، ولكن من أين استمد **الآمدي** هذا المصطلح لا يمكن القطع برأي محدد في مصدر هذا المصطلح عن الآمدي، وانما نحن نفترضافتراضا أن يكون الآمدي استفاد في وضعه من بعض المصطلحات التي ترد كثيرا في كتب النقد القديمة مثل : مذهب الشعر، وطريقة الشعر، ومذاهب العرب، ومسالك الأوائل، وما شاكل ذلك من العبارات التي تقترب من معنى عمود الشعر،أو لعله استفاد من مصطلح عمود الخطابة الذي ورد عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، فقد جاء فيه:«أخبرني محمد بن عباد بن كاسب [...] قال سمعت أبا داود بن جرير يقول : رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليهاالاعراب.»[5]

وقد صرح الأمدي بلفظ عمود الشعر أكثر من مرة بوصفهِّ شيئا معروفا ومتداولا بين الناس ثم نص صراحة على أن البحتري قد التزم هذا العمود ولم يخرج عليه، فقال:« أن البحتري كان أعرابي الشعر، مطبوعا ، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف.»[6]

ومن جهة أخرى يرى الآمدي أن أبا تمام خرج عليه، ولم يقم به كما قال البحتري، حين قال على لسان البحتري الذي سُئل عن نفسهٍ وعن أبي تمام فأجاب:

«كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوم بعمود الشعر منه.»[7]

ومن الواضح أن **الآمدي** قد نسب هذا المصطلح إلى البحتري في قولهٍ السابق حين سُئل عن نفسه وعن أبي تمام، فكان جوابه بأنه أقوم بعمود الشعر منه، وفي رأي أنه لو ثبت أن البحتري قد قال ذلك حق ا لكان هو أقدم من استعمل هذا المصطلح في حدود ما وصل إلينا، ولكننا لا نجد هذا الخبر إلا في كتاب الموازنة، مما يجعلنا نعتقد تماما أن الآمدي يسوق معاني البحتري بألفاظه ومصطلحاته الخاصة.

ويرد مصطلح عمود الشعر في موضع آخر من كتاب الموازنة على لسان البحتري يقول:« وحصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة، مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة»[8]

يدل النص السابق على قبول الآمدي للصنعة في عمود الشعر، إذ لم تخرج إلى حيز الإفراط والمبالغة، وما نجده في طريقة البحتري التي هي (عمود الشعر)، أنها لم تكن خالية من الصنعة باعتراف الآمدي نفسه،حيث يدل على ذلك بقوله: « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي،وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في موضعها، وأن يورد المعاني باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحتري.»[9]

فطريقة البحتري هذه – كما يتحدث عنها الآمدي – لم تنفِّ أن يكون فيها صنعة، كما أن البحتري كان يأخذ من فنون البديع وأشكاله، حتى كاد بعض النقاد أن يلحقه بأبي تمام في ذلك، ويجعلها طبقة واحدة، كما فعل ابن رشيق القيرواني حينما قال:

«وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من أشعار حبيب والبحتري وغيرهما، فقد كانا يطلبان الصنعة، ويولعان بها.»

ونخلص مما سبق بأن الآمدي هو أول من حام حول ما أسماه(عمود الشعر) وحدده بالصفات السلبية وأوردَّ ما تورط فيه أبو تمام من تعقيد، وألفاظ مستكرهة، وكلام وحشي، وابعاد في الاستعارة، واستكواه في المعاني، مما لو عكسنا تلك الصفات لأصبحت صفات البحتري في شعرهِّ.

03-02-عمود الشعر عند القاضي عبد العزيز الجرجاني:

لّقد قرأ القاضي الجرجاني ما كتبه الآمدي عن عمود الشعر، فحاول أن يستفيد من مصطلحه وأراد أن يطورعلى ما جاء به الآمدي من خصائص في مصطلح عمود الشعر، إلا أن هذه الخصائص كانت أكثر توافرا في عمود الشعر على النحو الذي تصوره الآمدي، وأشد وضوحا منها في عمود الشعر على النحو الذي تصوره الجرجاني في الوساطة،[10]

فللجرجاني في كتابه الوساطة قد تعَّرض من خلاله لبعض خصائص الشعر العربي، ولكثير من الأحكام النقدية، ومن ذلك إشارته إلى(عمود الشعر ونظام القريض) في قوله:(ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذ حصل لها عمود الشعر ونظام القريض.[11]

إلا أن هذا التعبير(عمود الشعر) لم يذكره الجرجاني كمصطلح له حدوده الجامعة المانعة، بل ذكره في معرض كلامه على المرتك ا زت الأساسية للمفاضلة بين الشعراء.

ويقول الجرجاني بناءّ على ذلك:(وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن، بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلمُّ السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وَبدَه فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته.)[12]

فمن هنا كانت معظم العناصر التي تحدث عنها الجرجاني على أنها مقياس المفاضلة والسبق بين الشعراء، وكذلك على أنها معيار الشعر الجيد، وهذه تكاد تكون عناصر عامة تتوافر في الشعر القديم مثلما تتوافر في الشعر الحديث كذلك.

ويمكن القول بأن الجرجاني لم يتحدث عن عمود الشعر حديثا واضحا محددا، وانما أشار إليه إشارة عابرة سريعة، فحدد للشعر ستة عناصر يتعلق بعضها باللفظ الذي ينبغي أن تتوافر فيه الج ا زلة والاستقامة، ويتعلق بعضها بالمعنى الذي يشترط فيه الشرف والصحة، ويستحسن منه ما كان سهلا مفهو ما يسير أمثالا على الألسنية، وأبياتا شاردة يتناقلها الناس ويحفظونها حكما وشواهد، ويتعلق بعضها بالخيال، ويؤثر عمود الشعر عند الجرجاني ما كان مطبوعا سهلا ، قريب المتناول، يُصيب الوصف، ويقصد الغرض من سبيل صحيح.[13]

فنلاحظ مما سبق أن الجرجاني قد تحدث عن عناصر أو خصائص عمود الشعر بشكلّ عام فلم يحصرها في الشعر الجاهلي كما فعل الآمدي،

وانما هو يحدثنا عن عمود الشعر الذي يعني مجموعة عناصر الشعر ومقوماته الأساسية التي لا يقوم إلا بها في الشعر القديم والشعر الحديث.

قائمة المصادر والمراجع:

[11] ينظر:ابن منظور: لسان العرب:مادة(عمد).

[2] وليد قصاب – قضية عمود الشعر العربي القديم – المكتبة الحديثة– ط2،ص146.

[3] إميل بديع يعقوب – المعجم المفضل في علم العروض والقافية وفنون الشعر – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان– ص338–339.

[4] إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ص40 .

[5] الجاحظ :البيان والتبيين : ، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة، ط 1 ، 1961 م،ج1،ص44.

[6] الآمدي :الموازنة بين الطائيين : تحقيق : السيد صقر، دار المعارف، ذخائر العرب، 1965 م،ج1،ص4.

[7] نفس المصدر:ص12.

[8] نفس المصدر:ص18.

[9] الآمدي:الموازنة بين الطائيين:ج1،ص423.

[10] نفس المصدر:ج1،ص04

[11] عبد العزيز الجرجاني:الوساطة بين المتنبي وخصومه:تحقيق:محمد أبو فضل إبراهيم،وعلي محمد البجاوي،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،(د–ط)،ص 34

[12] ينظر:نفس المصدر:ص ص15–35.

[13] يُنظر:الآمدي:الموازنة بين الطائيين:ص186.